ولا يعملوا به ، فالحمار مهمته أنْ يحمل ، وأنت مهمتك أنْ تفقه ما حملت وأنْ تؤديه .

فالاعتدال فى الصوت أمر ينبغى أن يتحلى به المؤمن حتى فى الصلاة وفى التعبد يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا** ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] أما ما تسمعه من (الجعر) فى مكبرات الصوت والنُّواح طوال الليل فلا ينالنا منه إلا سخط المريض وسخط صاحب العمل وغيرهم ، ولقد تعمدنا عمل إحصاء فوجدنا أن الذين يأتون إلى المسجد هم هم لم يزيدوا شيئاً بـ (الميكروفونات) .

كذلك الذين يرفعون أصواتهم بقراءة القرآن فى المساجد فيشغلون الناس ، وينبغى أن نترك كل إنسان يتقرب إلى الله بما يخفّ على نفسه : هذا يريد أنْ يصلى ، وهذا يريد أن يُسبِّح أو يستغفر ، وهذا يريد أنْ يقرأ فى كتاب الله ، فلماذا تحمل الناس على تطوعك أنت ؟

بعد أنْ عرضتْ لنا الآيات طرفاً من حكمة لقمان ووصاياه لولده تنقلنا إلى معنى كونى جديد :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

التسخير : هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار فى

التنقُّل منها ، كما سخر الله الشمس والقمر .. إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأبَّ الشمس فى يوم من الأيام أنْ تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها ، لماذا ؟ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها .

ولا نفهم من ذلك أن الله سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحى لهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذى خُيِّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خُيِّر ، وهذا واضح فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فالجميع خُيِّر ، خُيِّرت السموات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادةَ لها ، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ؛ لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل .

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء فى الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صدْتَ طيراً وحبسته فى قفص ومنعته من أنْ يطير فى السماء وتريد أنَ تعرف : أهو مُسخَّر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ فافتح له باب القفص ، فإنْ ظلَّ فى صحبتك فهو مُسخَّر لك ، راض عن بقائه معك باللقمة التى يأكلها أو المكان الذى أعددتَهُ له ، وإنْ خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مُسخَّر لك ، ولا يحقُّ لك أنْ تستأنسه رغماً عنه .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - لما مَرَّ بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أنْ يُعلِّمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طيِّعة ، فأقنعه

أنْ يبيعه العصفور ، فلما اشتراه عمر وصار فى حوزته أطلقه ، فقال الغلام : فو الله ما قَصَرْتُ بعدها حيواناً على الأنس به .

وسبق أنْ تكلمنا عن مسألة التسخير ، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبى الصغير ولم يُسخِّر لك مثلاً البرغوث فلو لم يُذلِّل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها فى خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك .

وقوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] أسبغ : أتمّ وأكمل ، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ] أى : دروعاً ساترة محكمة تقى لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، والدروع تُجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين ، وقد علَّم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع ، ليست ملساء ، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة ، ولا تتزحلق فتصيب مكاناً آخر .

ورُوى أن لقمان رأى داود ـ عليه السلام ـ يعجن الحديد بين يديه فتعجب ، لكنه لم يبادره بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع ، فأخذه ولبسه وقال : نعْمَ لَبُوس الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله[1] فظلَت حكمة تتردد إلى آخر الزمان .

فمعنى أسبغ علينا النعمة : أتمها إتماماً يستوعب كل حركة

---

(١) أخرج العسكرى فى الأمثال والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس أن لقمان عليه السلام كان عبداً لداود ، وهو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله ، فلما فرغ منها صبها على نفسه وقال : نِعْمَ درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحكمة وقليل فاعله ، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتنى

حياتكم ، ويمدكم دائماً بمقوِّمات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شيء ، لا في استبقاء الحياة ، ولا في استبقاء النوع ؛ لأن الذي خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق .

أما إذا رأيتَ قصوراً في ناحية ، فالقصور من ناحية الخَلْق في أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون ، لكن بخلوا بها وضنُّوا على غيرهم ، وهذه هي آفة العالم في العصر الحديث ، حيث تجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ، وآخرين جدُّوا ، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم ، وربما فاضتْ عندهم الخيرات حتى ألقَوْها في البحر ، وأتلفوها في الوقت الذي يموت فيه آخرون جوعاً وفقراً .

إذن : فآفة العالم ليس في أنه لا يجد ، إنما في أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مُقوِّمات الله تعالى في كونه . فقوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، فهل تنكرون أنه خلقكم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تنكرون أنه خلق السموات بما فيها من الكواكب والمجرَّات ، وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم ؟ ثم في أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وغير الظاهرة ، وجعل لكل منها مجالاً ومهمة تؤديها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله في جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نِعَم الله علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا .

فمعنى ﴿ظَاهِرَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] أي : التي ظهرتْ لنا ﴿وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] لم تصل إليها بعد ، ومن نِعَم الله علينا ما ندركه ، ومنها ما لا ندركه .

تأمل فى نفسك مثلاً الكليتين وكيف تعمل بداخلك وتصفى الدم من البولينا ، فتنقيه وأنت لا تشعر بها ، وأول ما فكر العلماء فى عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازاً يملأ حجرة كبيرة ، كانت نصف هذا المسجد من المعدات لتعمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلْية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب .

وقالوا : إن الفشل الكُلَوى عبارة عن عدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل فى الوقت المناسب يعنى المائة الأولى أدّتْ مهمتها وتوقفت دون أنْ تتنبه المائة الأخرى ، ومن هندسة الجسم البشرى أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها .

أما النعم الباطنة فمنه ما يُكتشف فى مستقبل الأيام من آيات ونعَم ، فمنذ عدة سنوات أو عدة قرون لم نكُنْ نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبخار .. إلخ .

كلها نعَم ظاهرة لنا الآن ، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العلمى والبحث والاستنباط من معطيات الكون ، وحين تحسب ما أظهره العلم من نِعَم الله تجده حوالى ٣٪ ونسبة ٩٧٪ عرفها الإنسان بالصدفة .

وقلنا : إن أسرار الله ونعمه فى كونه لا تتناهى ، وليس لأحد أن يقول : إن ما وضعه الله فى الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته ؛ لأنه باق ببقاء الحياة الدنيا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقَّق قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً[1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

وفى الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر ، وكأن الحق تعالى يقول لنا : لقد رأيتُم آياتى فى الدنيا واستوعبتموها ، فتعالوا لأُريكم الآيات الكبرى التى أعددتها لكم فى الآخرة .

ففى الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى ، بحيث تأكلون ولا تتغوَّطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون ، ولا تمرضون ، ولا تموتون ، لقد كنتم فى الدنيا تعيشون بأسبابى ، أما فى الآخرة فأنتم معى مع المسبِّب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا .. إلخ .

لذلك نقول : من أدب العلماء أنْ يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ؛ لأن آيات الله ونعَمه مطمورة فى كونه تحتاج لمن يُنقِّب عنها ويستنتجها مما جعله الله فى كونه من معطيات ومقدمات .

وسبق أنْ قلنا : إن كل سرٍّ من أسرار الله فى كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرُّماً من الله تعالى على خَلْقه الذين قَصُرَت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى فى كونه .

وفى هذا إشارة ومقدمة لأنْ نؤمن بالغيب الذى أخبرنا الله به ، فما دُمْنا قد رأينا نعَمه التى كانت مطمورة فى كونه فينبغى علينا أنْ نؤمنَ بما يخبرنا به من الغيب ، وأنْ نأخذَ من المُشاهَد دليلاً على ما غاب .

---

(١) من هذا قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) ﴾ [الأنبياء] أى : كالزرع المحصود . أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

واقرأ فى هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] أى : شاء سبحانه أنْ يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أنْ كان مطموراً ، فإنْ صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإنْ لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم .

أما الغيب الذى ليس له مُقدَّمات توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعنىّ بقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

وقال سبحانه ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يدخرها الله لمن يأتى بعد ، ثم يدخر ادخاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله فى جنة الله .

وقد حاول العلماء أن يُعدِّدوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا فى الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين تريد الجهاد فى سبيل الله تُعدُّ لذلك عُدَّته من سلاح وجنود .. الخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروْها ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

والرسول ﷺ يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول : « للمؤمن ثلاثة هى له وليست له ـ يعنى ليست من عمله ـ أما الأولى : أن المؤمنين يصلون عليه ، وأما الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصى به ـ يعنى : لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حىٌّ ، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شيء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذى

شرعه ، فمن النعم أن يباح لك التصرف فى ثلث ما لك توصى به لتُكفَّر به عن سيئاتك وتُطَهر به ذنوبك - أما الثالثة : أن الله تعالى ستر مساويك عن خَلْقه ، ولو فضحك بها لنبذك أهلك وأحبابك وأقرباؤك »[1] .

إن من أعظم النعم علينا أن يحجب الله الغيب عن خَلْق الله ، ولو خيَّرتَ أىَّ إنسان : أتحب أن تعرف غَيْب الناس ويعرفوا غيبك ؟ فلا شكَّ فى أنه لن يرضى بذلك أبداً .

والنبى ﷺ يوضح هذه المسألة فى قوله : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » يعنى : لو ظهر المستور من غيب الإنسان ، واطلع الناس على ما فى قلبه لتركوه إنْ مات لا يدفنونه ، ولقالوا دَعُوه للكلاب تأكله ، جزاءً له على ما فعل .

لكن لما ستر الله غيوب الناس وجدنا حتى عدو الإنسان يُسرع بحمله ودفنه ، كما قال القائل : محا الموت أسباب العداوة بيننا . لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيوب الآخرين ، وأنْ يتتبعَ عوراتهم ، فهل ترضى أنْ يعاملك الناس بالمثل ، فيتتبعون عوراتك ، ويبحثون عن عيوبك ؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفها الناس عنك كفيلة بأن تُزهِّدهم فى كل

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] قال : أما الظاهرة فالإسلام وما سوَّى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه . وأما الباطنة فما ستر من مساوىء عملك . يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن . صلاة المؤمنين عليه من بعده ، وجعلت له ثلث ماله أكفر عنه من خطاياه ، وسترت عليه من مساوىء عمله فلم أفضحه بشىء منها ، ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم » أخرجه ابن مردويه والبيهقى والديلمى وابن النجار . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٢٥]

حسناتك ، والله تعالى يريد أنْ ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان]

المجادلة : الحوار فى أمر ، لكل طرف فيه جنود ، وكل منهم لا يؤمن برأى الآخر ، والجدل لا يكون إلا فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، ويسمونه الجدل الحتمى ، وهذا يكون موضوعياً لا لَددَ فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير ، وفيه نقابل الرأى بالرأى ليثمر الجدال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أما الجدل الذى يريد فيه كل طرف أنْ يُعلى رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شىء .

والجدل مأخوذ من الجَدْل أى الفَتْل ، والشىء حين يُفتل على مثله يقويه ، كذلك الرأى فى الجدل يُقوِّى الرأى الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته ، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره .

فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلى رأيه ولو بالباطل .

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من ألفَ الجدل فى الله على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ، فيقولون مثلاً فى جدالهم : أللكون إله موجود ؟ وإنْ كان موجوداً ، أهو واحد أم متعدد ؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيات أم الكليات ؟ أيزاول مُلْكه كل وقت ؟ أم أنه

خلق القوانين ، ثم تركها تعمل في الكون وتُسيِّره ؟ كأن الله تعالى زاول سلطانه في المُلْك مرة واحدة .

ومعلوم أن الله تعالى قيُّوم أي : قائم على أمر الخَلْق كله في كل وقت ، والدليل على ذلك هذه المعجزات التي خرقتْ النواميس لتدلّ على صِدْق الرسل في البلاغ عن الله ، كما عرفنا في قصة إحراق إبراهيمَ - عليه السلام - فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما مكّنهم الله منه ، أو مكّنهم منه ومن إلقائه في النار ، ثم أرسل على النار سحابة تُطفئها .

لكن أراد سبحانه أن يشعلوا النار ، وأنْ يُلقوا بإبراهيم فيها ، ومع ذلك يخرج منها سالماً ليروْا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة لقانون النار ليكبتهم الله ، ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس ، ولو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم لوجدوا هذه الفرصة ولقالوا : لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا .

ومعنى ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ⟨٢٠⟩ ﴾ [لقمان] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها ، وهي واقعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فإنْ كانت القضية التي تؤمن بها غير واقعة ، فهذا هو الجهل ، فالجاهل لا يوضع في مقابل العالم ؛ لأن الجاهل لديه علم بقضية لكنها باطلة ، وهذا يتعبك في الإقناع ؛ لأنه ليس خالي الذهن ، فيحتاج أولاً لأنْ تُخرج من ذهْنه القضية الباطلة وتُحل محلها القضية الصحيحة ، أما الأُميّ فهو خَالي الذِّهن من أي قضية .

فإنْ كانت القضية التي تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، كالولد الصغير الذي علمناه أن (الله أحد) واستقرتْ في ذهنه هذه المسألة ؛ لأن أباه أو معلمه لقّنه هذه القضية حتى أصبحتْ

عقيـدة عنده ، فالذى يُدلِّل عليها مَنْ لقَّنها لـه إلى أنْ يكبر ، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها : العلم البدهى الذى نصل إليه بالبديهة دون بحث ، فمـثلاً حين نرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حيٌّ بالـبديهة ، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا ، والأرض تحتنا .. الخ .

وإذا نظرتَ إلى معلومـات الأرض كلها تجد أن أم هذه المـعلومات البديهة . فـعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تسـتـخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا .

فـحين تعـيـد تسلسل النظريات الهندسـيـة فإنك لا بُدَّ عـائد إلى النظرية الأولى وهى بديهـة تقول : إذا التقى مـستقـيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان .

إذن : فـأعقـد النظريات لا بُدَّ أن تعـود إلى أمر بدهى منثـور فى كون الله ، المـهم مَنْ يلتفت إليـه ، وقد قال الحق سـبحـانه وتعالى : ﴿ وَكَـأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّـمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْـهَـا وَهُمْ عَنْهَـا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أى : وجوداً وصفاتاً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير ، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً إنما مراء لا طائلَ من ورائه .

ومعنى الهـدى : أى الاستـدلال بشىء على آخر ، كـالعربى الذى ضَلَّ فى الصحـراء ، فلما رأى على الرمال بَعْراً وأثراً لأقـدام استأنس

بهـا ، وعلم أنـه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمرَّ بـه أحـد ، فلمـا عرضتْ له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال[١] :

البعـرة تدل على البعيـر ، والقدم تدل على المـسير ، سـماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجـاج ، نجوم تزهر ، وبحـار تزخر[٢] .. ألاَ يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

فـالإنسـان حـيـن ينظر فى الكون وفى آياتـه لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخـالق عز وجل ، فما كان لهـا أنْ تتأتى وحدها ، ثم إنه لم يدَّعِها أحدٌ لنفسه مـمَّنْ ينكرون وجود الله ، وقلنا : إن أتفه الأشياء التى نراها لا يمكن أن توجـد هكذا بدون صانع ، فـمثـلاً الكوب الذى نشرب فيه ، هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

إذن : لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر فى الحاجة إليها ، فصنعها بعد أنْ كان الإنسان يشرب الماء عباً[٣] أو نزحاً بالكف ، وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعـد بحث العلماء فى عناصر الوجـود ، أيها يمكن أنْ يعطينى هـذه الزجاجـة الشـفافـة ، فوجـدوا أنهـا تُصنَع من الرمل بعد صَهْره تحت درجة حرارة عالية ، فـهذا الكوب الذى يمكن

---

(١) هو : قس بن سـاعدة بن عـمرو الإيادى ، أحـد حكمـاء العرب ، ومن كـبار خطبـائهم فى الجاهلية ، كـان أسقف نجران ، طالت حياته وأدركه النبى ﷺ قـبل النبوة ، ورآه فى سوق عكاظ . توفى نحو ٢٢ ق هـ . [الاعلام للزركلى ٥/١٩٦] .

(٢) هـذا الجزء من خطبة خطبها قس في سوق عكاظ : أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مـات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات .. إن فى السـماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعـبراً ، ليلٌ داج ، وسـماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . [ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة ٢/١٠٨] .

(٣) العب : شرب المـاء من غير مصٍّ . وقـيل : أن يشرب الماء ولا يتنفس . [لسـان العرب ـ مادة : عبب] .

أنْ نستغنى عنه أخذ منا خبرة وقدرة وعلماً .. إلخ .

فما بالك بالشمس التى تنير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أنْ تكلّ أو تملّ أو تتخلف يوماً واحداً ، وهى لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ، أليست جديرة بأنْ نسأل عمَّنْ خلقها وأبدعها على هذه الصورة ؟ خاصة وأنها فوق قدرتنا ولا تنالها إمكاناتنا .

هذه هى الآيات التى نأخذها بالأدلة ، لكن هذه الأدلة لا تُوصِّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً ، لكن العقل لا يصل بى إلى هذا الخالق : مَنْ هو ، وما اسمه ، إذن : لا بُدَّ من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا مَنْ هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه ، وماذا أعدَّ لمن عصاه .

وفَرْق بين التعقُّل والتصوُّر ، والذى أتعب الفلاسفة أنهم خلطوا بينهما ، فالتعقل أن أنظر فى آيات الكون ، وأرى أن لها موجداً ، أمّا التصور فبأنْ أتصور هذا الموجد : شكله ، اسمه ، صفاته .. إلخ وهذه لا تتأتى بالعقل ، إنما بالرسول الذى يأتى من قِبَل الإله الموجد .

وسبق أن ضربنا مثلاً - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : لو أننا نجلس فى مكان مغلق ، وطرق الباب طارق ، فكلنا يتفق على أن طارقاً بالباب لا خلاف فى هذه ، لكن نختلف فى تصوُّره ، فواحد يتصور أنه رجل ، وآخر يقول : طفل ، وآخر يتصوَّره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً .. إلخ .

إذن : اتفقنا فى التعقُّل ، واختلفنا فى التصور ، ولكى نعرف مَن الطارق فعلينا أن نقول : من الطارق ؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا

مَنْ هو ؟ ولماذا جاء ؟ ويُنهى لنا هذا الخلاف .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلى الله عليه بالخطاب ، بأن يكون مُعداً لتلقِّى هذا الخطاب ، لا أنْ يخاطب كل الناس .

وقد مثَّلْنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذى لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قَدْره وإلا حُرق ، فحتى فى الماديات لابد من قوى يستقبل ليعطى الضعيف .

والحق سبحانه يُعد من خَلْقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلِّغ الناس ، فيكلم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وإلا لو كلَّم الله جميع البشر ، فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربى بمحمد لكان محمد أوثقَ عندى من ربى ، ولو عرفتُ محمداً بربى ، فما الحاجة إذن للرسل ؟ لكن عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد ، فبلَّغنى مراد ربى منى . إذن : لا بُدَّ من هذه الواسطة .

والحق سبحانه يعطينا فى القرآن مثالاً يوضح هذه المسألة فى قوله تعالى عن سيدنا موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿ قَالَ لَن تَرَانِى .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقل سبحانه : أنا لا أُرَى ، والمعنى : لو أعددتُكَ الإعدادَ المناسب لهذه الرؤية لرأيتَ بدليل أننا سنُعَدُّ فى الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وفى المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل ، وهو الجنس الأقوى من موسى مادةً وصلابة اندكَّ الجبل ، ونظر موسى إلى الجبل المتجلَّى عليه فخرَّ صَعقاً ، فما بالك لو نظر إلى المتجلِّى سبحانه ؟

إذن : الحق سبحانه حينما يريد أنْ يخاطب أحداً من خَلْقه ، أو يتجلى عليه يُعدُّه لذلك ، ويُربِّيه على عينه ، كما قال عن موسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ [طه] ثم يقوم هذا المربى الذى رباه الله بتربية الخَلْق .

وقد ربى محمد ﷺ أمته فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقتْ تربية الناس وقتاً طويلاً ؛ لذلك يصطفى الله الرسل ، ويعطيهم من الخصائص ما يُمكِّنهم من تربية الأمم بعد أنْ ربَّاهم الله ، واصطنعهم على عينه .

إذن : كان ولا بُدَّ من إرسال الرسل للبلاغ عن الله : مَنْ هو ، ما اسمه ؟ ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن أطاعه ؟ وماذا أعد لمن عصاه .. إلخ . لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أنْ تقول للذى يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله فى العبادة : وماذا قالت لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مرادها منك ؟ وإلا ، فلماذا تعبدها والعبادة فى أوضح معانيها : طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

فإنْ قُلْتَ : إذن لماذا قَبلَتْ عقول هؤلاء القوم أنْ يعبدوا هذه الأشياء ؟ نقول : لأن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ومركوز فى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلاً منا فيه ذرة حية من أبيه آدم - عليه السلام - لم يطرأ عليها الفناء ، وإلا لما وُجد الإنسان ، وهذه الذرة فى كل منا هى التى شهدتْ الفطرة ،

وشهدتْ الخلقَ ، وشـهدتْ العهد الذى أخذه الله علينا جميعاً ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فإنْ حافظتَ على إشراقية هذه الذرة فيك ، ولم تُعرِّضها لما يطمس نورها - ولا يكون ذلك إلا بالسير على منهج خالقك وبناء لبنات جسمك مما أحل الله - إنْ فعلتَ ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك .

لذلك جاء فى الحديث أن العبد يشكو : يقول « دعوتُ فلم يُستجب لى ، لكن أنَّى يستجاب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام؟ »(1) كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه ، وغفل عن قانون صيانتها ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتى حين تنطمس النورانية الإيمانية ، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله ، وشهدتْ له بالربوبية ، ولو حافظت عليها لظلَّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشة الضنك ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] أى : نوراً يهديكم وتُفرِّقون به بين الحق والباطل .

والحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية ، وهما

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ؟ » .

أمران : الغفلة والتى قال الله عنها : ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف] والقدوة التى قال الله عنها : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فالذى يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج ، هذه الغفلة تُوجد جيلاً لا يتمسك بمنهج الحق ، وبذلك تكون العقبة فى الجيل الأول الغفلة ، لكن فى الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقضى الأجيال تزداد الغفلة ، وتزداد القدوة السيئة ؛ لذلك يوالى الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخَلْق هذه الغفلة ، وليوجد لهم من جديد قدوةً حسنة ، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق .

فمَنْ أراد أنْ يجادل فى الله فليجادل بعلم وبهدى وبكتاب منير مُنزَّل من عند الله ، ووَصْف الكتاب بأنه منير يدلُّنا على أن الكتاب المنسوب إلى الله تعالى لا بُدَّ أن يكون منيراً ؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان .. إلخ .

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

ثم : ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ .. (١٥٩)﴾ [البقرة]

وإن كان الإنسان يُعذَر فى النسيان ، فلا يُعذَر فى الكتمان ، ثم الذى نجا من النسيان ومن الكتمان وقع فى التحريف ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة] ولَيْتهم اقتصروا على ذلك ، إنما اختلقوا من عند أنفسهم كلاماً ، ثم نسبوه إلى الله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٩)﴾ [البقرة] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها فى اليهود .

إذن : فالكتب التى بأيديهم لا تصلح للجدل فى الله ؛ لأنها تفقد العلم والحجة والهدى ، ولا تُعَدُّ من الكتاب المنير المشرق الذى يخلو من التضبيبات والفجوات ، فجوات النسيان والكتمان ، والتحريف والاختلاق .

فمَنْ يريد أنْ يجادل فى الله فليجادل بناء على علم بدهىٍّ أو هدى استدلالى ، أو كتاب منير . والكتب المنزَّلة كثيرة ، منها صحف إبراهيم وموسى ، ومنها زُبُر[1] الأولين ، والزبور نزل على سيدنا داود ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ـ عليهم جميعاً السلام ـ وهذه كلها كتب من عند الله ، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة ؟

نقول : نعم ، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التى شوَّهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التى كانت لها ، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهى أقسى شىء فى تغيير المناهج .

هذه السلطة الزمنية هى التى منعتْ اليهود أن يؤمنوا برسول الله ، وهم يعلمون بعثته فى بلاد العرب ، ويعلمون موعده وأوصافه ، وأنه ﷺ خاتم الرسل ؛ لذلك يقول القرآن عنهم : ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول عنهم : ﴿ **وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٤٦) ﴾ [البقرة] لذلك ، سيدنا عبد الله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

---

(١) الزُّبُر : جمع زبور ، وهو الكتاب . زَبَر الكتاب يزبره : كتبه فهو مزبور ، وزبور : أى مكتوب . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

ويحكى القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم : لقد أظل زمان نبى جديد نسبقكم إليه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[١] ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التى كانت لهم ، والريادة التى أخذوها فى العلم والاقتصاد والحرب .. إلخ ، لقد كانوا يُعدُّون واحداً[٢] منهم ليُنصِّبوه ملكاً عليهم فى المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله ، فلما دخلها رسول الله لم تَعُد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله ، فرفض هذا الملك الجديد .

إذن : فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير ، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التى تحميها كما حمى القرآن ، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبى الخاتم ، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتبَ أحكام ، ولم تكن معجزة في ذاتها ، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج ، فموسى عليه السلام معجزته : العصا واليد .. إلخ وكتابه ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته أنْ يُبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل .

أما محمد ﷺ فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن ، فهو منهج

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار .

(٢) هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول . قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ : إنا والله يا رسول الله . لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ، ومنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أُبىّ التاج . ونملكه علينا . [أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٠٠)] .

ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أنْ تقوم الساعة ؛ لأن رسالته هى الرسالة الخاتمة ، فلا بُدَّ أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول : هذا محمد وهذه معجزته .

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ، ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئاً ، وما صدَّقنا بها ، وسبق أنْ شبَّهناها بعود الكبريت الذى يشعل مرة واحدة رآه مَنْ رآه ، ثم يصبح خبراً ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً : هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته ؛ لأننا لم نَرَ هذه المعجزة .

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المنهج ، وليست معجزة فى ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها ، وهذا أمر تكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصَى ، فكان منهم أنْ عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب فى هذه الكتب .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء ، فاعلم أنها للطلب : استحفظتُك كذا يعنى : طلبتُ منك حفْظه ، مثل : استفهمتُ يعنى طلبت الفهم ، واستخرجت ، واستوضحت .. إلخ .

فلما جُرِّب الخَلْق فى حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا ، ولم يحفظوا ، تكفَّل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن ، وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

لذلك ظلَّ القرآن كما نزل لم تَنَلْه يد التحريف أو الزيادة

أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قال فى أول سوره ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ۝ ﴾ [البقرة] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة ، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا : لا يوجد كتاب مُوثَّق فى التاريخ إلا القرآن .

والعجيب فى مسألة حفْظ القرآن أن الذى يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أنت الكمبيالة التى لك على خصمك ، أما الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فقد ضمن حفْظ القرآن ، والقرآن ينبىء بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسجِّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صدْق وتحقُّق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن : فحفْظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شىء فى الكون أبداً يناقض كلام الله فى القرآن : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ﴾ [النساء]

وسبق أنْ قُلنا : إن القرآن حكم فى أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار ، فيأتى اختيار الخَلْق وفق ما حكم ، مع أنهم كافرون بالقرآن، مكذبون له ، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به ، وكان بإمكانهم أنْ يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم فى كون الله إلا ما أراد .

لكن ، ماذا نفعل فيمَنْ يجادل فى الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ؟ نلفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المنير .

ندعوهم إلى النظر فى الآيات الكونية ، وفى البدهيات التى تثبت وجود الخالق عز وجل ، ندعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر فى المعجزة التى جاء بها رسول الله ، ألم يخبر وهو فى شدة الحصار الذى ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر .. إلخ.

ألم يُخبر القرآن فى هذه الأثناء بقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] حتى أن سيدنا عمر ليتعجب : أىُّ جمع هذا ؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه ما حاق بالكفار قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ألم يقل القرآن عن الوليد بن المغيرة[1] ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] وفعلاً ، لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه[2] . ألم يُشِرْ رسول الله قبل المعركة إلى مصارع القوم ، فيقول وهو يشير إلى مكان بعينه : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان[3] ، ثم تأتى المعركة ويُقتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه أعطانا فى القرآن أشياء تدل على أنه كتاب يُنوِّر لنا الماضى ، ويُنوِّر لنا الحاضر والمستقبل . وسبق أنْ قُلْنا : إن

---

(١) قال ابن حجر فى الفتح (٨/٦٦٢) : « اختلف فى الذى نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحى بن سلام فى تفسيره ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره ، وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلى عن القتيبى » .

(٢) عن ابن عباس فى قوله ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾ [القلم] قال : رجل من قريش كانت له زنمة زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها . قال السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٤٩) : « أخرجه البخارى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم » وعن ابن عباس أيضاً فى قوله ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] : قاتل يوم بدر فخطم بالسيف فى القتال . ولم يذكر أنه الوليد بن المغيرة .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس رضى الله عنه ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضى ، وما سيحدث فى المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذى تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد تكون فى نفس المكان وتجلس معى ، لكنك لا تعرف ما فى صدرى مثلاً .

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فمثلاً فى غزوة مؤتة[1] لما بعث النبى ﷺ جيشه إليها ، وبقى هو فى المدينة قال : حين وزَّع القيادة : يحمل الراية فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان وسمَّى هؤلاء الثلاثة ، ثم قال : فإذا قُتل الثالث فاختاروا من بينكم مَنْ يحملها[2] .

وجلس النبى ﷺ بين أصحابه فى المدينة ، وأخذ يصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبى ﷺ وهو فى المدينة .

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر فى تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتى شهدها رسول الله بنفسه ، أما التى لا يخرج فيها فتسمَّى (سرية) فلما أخبر ﷺ بما يدور فى المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة .

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كشف لرسوله ﷺ ما يدور

---

(١) وقعت غزوة مؤتة فى جمادى الأولى عام ٨ هجرية ، ومؤتة : قرية من أرض البلقاء من الشام . وتسمى أيضاً غزوة جيش الأمراء ، وقد كانت غزوة شديدة ، استشهد فيها جعفر ابن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قاتلوا فيها الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣٦٦/٤) وفيه أن رسول الله ﷺ نعاهم قبل أن يجيء الخبر .

فى نفوس قومه(١) : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (٨) [المجادلة]

هذه كلها من آيات الإنارة فى القرآن التى استوعبتْ الماضى والحاضر والمستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾

كلمة ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٢١) ﴾ [لقمان] عامة تشمل كل الكتب المنزَّلة ، وأقرب شىء فى معناها أن نقول : اتبعوا ما أنزل الله على رسلكم الذين آمنتم بهم ، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله وأقررتم برسالته .

أو : يكون المعنى ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٢١) ﴾ [لقمان] أى : تصحيحاً للأوضاع ، واعرضوه على عقولكم وتأملوه .

لكن يأتى ردهم : (بَلْ) وبل تفيد إضرابهم عما أنزل الله ﴿ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٢١) ﴾ [لقمان] وفى آية أخرى ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/٣٢٣) : أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم فى الباطن ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا فقال الله تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴾ [المجادلة] .